

معالم وجود الدولة الجزائرية وهيبته العالمية قبل الاستعمار الفرنسي 1518-

1830

دكتورة: حورية ومان¹

¹جامعة محمد خيضر بسكرة- الجزائر

تاريخ الاستلام: 2019/12/10 تاريخ القبول: 2019/12/25 تاريخ النشر: 2020/01/01

تعددت وتنوعت الكتابات الفرنسية حول تاريخ الجزائر قبل الاحتلال، وكثرت الادعاءات بأن الجزائر لم تكن دولة مستقلة، وقد استطاع الفرنسيون أن يوهموا أنفسهم بأنهم احتلوا الجزائر كي يطردوا منها الأتراك الذين أدخلوا بالأمن في البحر المتوسط، ولم يكتفوا بتصفيتنا جسديا بل أرادوا طمس معالمنا الحضارية وهويتنا الوطنية. وتمثلت محاولاتهم هذه في الاعتداء الصارخ على مقوماتنا دينية كانت أو تاريخية. وتعدت إلى اعتبارنا وبصورة قانونية فرنسيين، وأن الجزائر فرنسية تابعة لفرنسا فيما وراء البحار.

حيث أن إشكالية وجود الدولة الجزائرية، وتاريخ قيامها بكل معالمها التاريخية والحضارية قبل ألف وثمانمائة وثلاثون، كانت ولا زالت من أبرز الإشكاليات المطروحة في مسار بناء الأسس المعرفية، وفي وجود كيان جزائري قائم بذاته قبل وخلال الاحتلال الفرنسي. ومن خلال هذا المقال سنحاول التطرق إلى الجدلية القائمة بين الكتابات الفرنسية التي تنفي وجود الدولة الجزائرية قبل هذه الفترة. و الكتابات الجزائرية التي تحاول تكذيب الادعاءات الفرنسية. ثم التطرق إلى أهم المعالم التاريخية والحضارية للدولة الجزائرية قبل 1830 إلى غاية 1962.

المؤلف المرسل: دكتورة: حورية ومان

دكتورة: حورية ومان

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في تحديد مفهوم الدولة الجزائرية قبل وخلال الاحتلال الفرنسي للجزائر و التأكيد على وجودها كدولة بكل معالمها المادية والغير المادية، وذلك من خلال ما دون في الأدبيات والكتابات التاريخية الجزائرية.

حدود الدراسة:

امتد الحد الموضوعي لهذه الدراسة في معرفة مفهوم الدولة الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية من خلال الأدبيات التاريخية الجزائرية، أما المجال الزمني امتد ما بين 1830-1962 وهي الفترة التي شهدت فيها الجزائر الاحتلال الفرنسي وكل معالم طمس الدولة الجزائرية وهوية الشعب الجزائري.

أهداف الدراسة: تنحصر أهداف الدراسة في النقاط الآتية:

- 1- تحديد مفهوم الدولة الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية من خلال ما كتب المؤرخين الجزائريين
- 2- محاولة الوصول إلى حقيقة وجود الدولة الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي
- 3- محاولة معرفة الخطط والاستراتيجيات التي طبقتها الثورة التحريرية في التصدي ومواجهة الحرب النفسية الفرنسية.

إشكالية الدراسة:

1- مفهوم الدولة:

تعددت المفاهيم والتوجهات الفكرية لمفهوم الدولة، حسب التخصصات التي اهتمت بدراسة تشكل الدولة وبناءها، فتنوعت التعريفات بين المنظور الاجتماعي، الفلسفي، القانوني، السياسي، والتاريخي.

1-1 التعريف الاجتماعي للدولة:

عرفها عبد الله العروي كمايلي: " الدولة تنظيم اجتماعي، فهي اصطناعية، لا يمكن أن تتضمن قيمة أعلى من قيمة الحياة الدنيا كلها. تتعلق

1830

القيمة بالوجدان الفردي، إذ يتوجه نحو الغاية المقدرة له. إذا كانت الدولة في خدمة الفرد، لكي يحقق غايته، فهي مقبولة شرعية، مع أنها تبقى اصطلاحية ومؤقتة مثل جميع الكائنات. إذ هي تجاهلت الهدف الأعلى أو عارضته.¹

وحسب عبد الإله بلقزيز فيعرف الدولة أنها: "ظاهرة طبيعية، صادرة عن النظام الاجتماعي، وصفه نظاما طبيعيا ولذلك تطابق المجتمع ولا تناقضه، لأن وظيفتها أن تخدم المجتمع والفرد"²

1-2 التعريف الفلسفي للدولة:

الدولة عن أرسطو هي: "ظاهرة طبيعية نشأت نتيجة ائتلاف قرى كثيرة من أجل تحقيق الاكتفاء الذاتي" ويؤكد أنه لا يوجد شك إطلاقا في أن جمع الأفراد ينتمون إلى الدولة، ذلك لأنه لا يستطيع أي فرد من أفراد المجتمع أن ينتهي إلى نفسه.³

1-3 التعريف القانوني للدولة:

وتعرف الدولة وفق الإطار القانوني على أنها: "تجمع بشري مرتبط بإقليم محدد يسوده نظام اجتماعي وسياسي وقانوني، موجه للمصلحة المشتركة، وسلطة مزودة بقدرات تمكنها من فرض النظام ومعاقبة من يهدده بالقوة."⁴

ودولة القانون تتعارض مع السلطات المطلقة والديكتاتوريات الفاقدة للشرعية والتي لا تعبر إلا قليلا من الاحترام للحريات الأساسية للإنسان⁵ وإن

¹ عبد الله العروي، مفهوم الدولة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2011، ص14.

² منال كواش، إشكالية بناء الدولة والمجتمع في الجزائر: قراءة نقدية، مجلة تحولات، العدد الثاني، جوان 2018، ص169.

³ محمود حيدر، الدولة فلسفتها تاريخها من الإغريق إلى ما بعد الحداثة، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية العتبة العباسية المقدسة، 2018، ص29.

⁴ منال كواش، المرجع السابق، ص 171.

⁵ عبد القادر شربال، دولة القانون والديمقراطية في الجزائر، مجلة القانون والمجتمع والسلطة، أشغال الملتقى الوطني حول موضوع مؤشرات الحكم الراشد وتطبيقاتها، 06-07 أبريل 2011، ص32.

دكتورة: حورية ومان

علاقة الدولة بالمجتمع تنتظم في أطر قانونية ومادية تتيويجا لعملية إلغاء الأطر والبنى التقليدية للمجتمع.¹

4-1 التعريف السياسي للدولة:

عرفها ماكس فيبر أنها: " مشروع سياسي ذو طابع مؤسساتي، تطالب قيادته الإدارية بنجاح وفي تطبيقاتها للأنظمة باحتكار الإكراه البدني المشروع"² وهي أداة للتعبير عن واقع يعيشه شع معين، عن طريق المؤسسات وتعتبر الدولة قمة الوعي المعرفي والأخلاقي والاجتماعي السائد والمستوى المعرفي، فإذا كانت العلاقات متخلفة فالدولة متخلفة وإذا كانت متقدمة فالدولة متقدمة.³

5-1 التعريف التاريخي للدولة:

الدولة نتاج ظرف تاريخي في المقام الأول، وليست مفهوما تجريديا متعاليا، حيث تظهر الدولة في الكثير من خطابات العلوم السياسية، على أنها تجريد أو شئ كوني أبدي، وقد بدأ هذا التوجه المعزز لهذه الأبدية الكونية مبكرا في القرن 18، عندما كان مفهوم الدولة مرتبط بالعقلانية والتقدم والحضارة.⁴

2- مفهوم الدولة الجزائرية من خلال الكتابات الفرنسية

كان الفرنسيون لا يتورعون عن الإدعاء بأن الجزائر لم يسبق أن كانت دولة مستقلة ذات سيادة قبل عام 1830 وإنما ليست إلا قطعة من فرنسا ألت إليها بحق الاحتلال. "حيث اعتمدوا على ما كتبه مؤرخو الفترة (1838-1880)،

¹ شلغوم نعيم، بوريش رياض، بناء الدولة - الأمة من منظور علاقة الدولة والمجتمع، المجلة الجزائرية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 4، العدد 01، جوان 2020، ص9.

² منال كواش، المرجع السابق، ص172.

³ المرجع نفسه.

⁴ عبد الحليم مهور باشة، الدولة الحديثة دراسة نقدية عند وائل الحلاق، مجلة جامعة الشارقة، دورية علمية محكمة للعلوم الإنسانية والاجتماعية عدد B المجلد 16، العدد 2، ديسمبر 2019، ص389.

معالم وجود الدولة الجزائرية وهيتها العالمية قبل الاستعمار الفرنسي 1518-

1830

من مذكرات شخصية، وتقارير رسمية وروايات شفوية سجلها القادة العسكريون¹.

والحكام المدنيين الذين كتبوا للتعرف على الجزائر، مثلما ماكتبه أرنو ARNAUD، فيرو FERAUE، رين RINN، برجو BERBRUGR، وهؤلاء مستوهم العلي محدود، ووقع على عاتقهم تعريف قوات الاحتلال والإدارة الاستعمارية بالمجتمع الجزائري، وبمؤسساته وثقافته وتاريخه² ولقد وجدت هذه الدعاية الفرنسية في الأوساط الدولية من يصدقها، الأمر الذي جعل الكثيرين من أقرب الناس إلى الجزائر ينظرون إلى قضيتها، ومشاكلها مع فرنسا بدعوى أنها قضية معقدة مستعصية ليس من السهل بحثها، أو حلها ولعل هذا ما يفسر عدم التعرض لها في المحافل الدولية لفترة طويلة من الاحتلال³.

ولقد قسم مولاي بلحميسي موقف المؤرخين والكتاب الفرنسيين إلى قسمين قسم ما ألف قبل 1830 وقسم بعد 1830.

¹ يطلق على الفترة الممتدة بين 1830-1880 عهد المؤرخين العسكريين حيث يطلق المؤرخ ستيفان غزال على هذا العهد اسم (المدرسة الجزائرية القديمة) في كتابة التاريخ. ذلك أن الذين تولوا كتابة تاريخ الجزائر، الاقتصادي والسياسي والإداري خلال هذا العهد هم كتاب عسكريون بالمهنة وقد ظلت الإدارة الفرنسية في الجزائر عسكرية من 1830 إلى 1871 باستثناء سنتي 1858-1860. فخلال العشر سنوات الأولى من الاحتلال ظهر كتاب عسكريون أمثال كارت، وبيليسي وهانتو، وديلاماروقد شارك هؤلاء في اللجنة العلمية التي كونتها الوزارة الحربية لاكتشاف الجزائر. كما كتب هانتو عن لهجات الجزائريين، وجمع ديلامار وثائق عديدة عن الآثار والخطوط. ينظر: أبو القاسم سعد الله، منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر، مجلة الأصالة، تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، س3، ع 14-15، ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الثانية، رجب 1393هـ، ماي، جوان، جويلية، أوت 1973، ص11.

² بلقاسم ميسوم، الكتابات التاريخية خلال الفترة الاستعمارية 1830-1962، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، نوقشت بقسم التاريخ جامعة الجزائر2، 2012، ص4.

³ محمد الأمين بلغيث، الجزائر في باندونغ، الجزائر: دار كتاب الغد للنشر والتوزيع، 2007، ص35.

دكتورة: حورية ومان

حيث أن النزعة السائدة قبل 1830 هي الكراهية، وقد ملأ كتبهم الجو المعادي والموقف المعاكس لكثرة الأزمات وتوتر العلاقات بين الجزائر، ومعظم الأمم الغربية أدت إلى حروب ضارية حتى أصبح العصر عصر عدااء صب في كتب الأدب والتاريخ فتراكمت الأفكار المسبقة والنوايا المغرضة ومال أصحابها إلى الشتم والازدراء والاستفزاز والاحتقار. فالعاصمة في مؤلفاتهم "حجر اللصوص وعش الصعاليك وجحيم النصارى وجمهورية قطاع الطرق" وحكام البلاد غيلان إفريقيا" وهم أهل استبداد معدموا الأخلاق همهم الوحيد هو طلب اللذة ونهب الأموال.

كان الهدف من كتب التاريخ قبل 1830 يرمي إلى إثارة سخط الأوروبيون على الجزائر وإشعال نار الحقد وإعداد جو الحروب الصليبية وإرسال السفن لقصف العاصمة فإن الغرض بعد نكبة الكبرى كان الحط من شأن الأتراك والطعن في نظمهم والفتك بسمعتهم وجاههم ومحو كل ما تبقى لهم من آثار وما قام من اعتبار.

أما فترة بعد 1830 ما أن تم الاحتلال حتى أقبلت جماعة كبيرة على دراسة تاريخ البلاد منذ أقدم العصور فتها طلت الدراسات حيث تميز الإنتاج عند معظم مؤرخي الفرنسيين القرن التاسع عشر والعشرين، في التركيز على العنف والحروب الداخلية والحوادث الدامية والثورات المحلية، والزوابع السياسية، وعدم الاستقرار، وفقدان الأمن.

فإن كانت المدرسة الأولى مهدت الاحتلال فإن الثانية بررت الغزو الفرنسي وحولته إلى ضرورة لإنقاذ الأهالي التعساء من مخالب الطغاة والدفع بهم إلى فردوس الحضارة وجنة التقدم وتحويل البؤساء إلى سعداء.¹

¹ مولاي بلحميسي، موقف المؤرخين الفرنسيين من الجزائر في العهد العثماني، مجلة الدراسات التاريخية، يصدرها معهد التاريخ، الجزائر، ع5، س3، 1988، ص ص102، 106.

1830

بالإضافة إلى ما كتبه القناصلة الأوروبيون في الجزائر الذين طافوا ببعض أرجائها وتعرفوا إليها وإلى شعبيها فكتبوا عنها، ولكن كتاباتهم لم تكن تخلو من الغلو والتنكر للحقيقة فهذا القنصل الفرنسي (جون يوم) في الجزائر يؤكد لحكومته في بعض رسائله ما يأتي: "أن هؤلاء الجزائريين لا يستحقون حتى النظرة من الفرنسيين لأنهم شرسون ليست لهم آداب ولا أخلاق ولأنهم مشهرون بالجهل".¹⁴ أما قنصل الولايات المتحدة الأمريكية "وليام شالير".¹⁵ يصف الجزائريين "بقطاع الطرق المتكبرين وأنهم أفات العالم المتحضر يكرهون العلوم والتقدم الحضاري وأنهم لا يستحقون ذكرا في التاريخ".¹⁶

وبمرور مائة عام على احتلال الجزائر (1830-1930) تكتل عدد من المؤرخين الفرنسيين لجان تحت إشراف الحكومة العامة لنشر بحوث عن تاريخ الجزائر بصفة عامة وتاريخ الاستعمار بصفة خاصة ومن بين هذه البحوث كتاب "تاريخ ومؤرخي الجزائر" "histoire et historiens de l'Algerie" الذي ضم مجموعة من بحوث طبعت ووضعت في كتاب واحد. الذي تألف من 424 صفحة. لقد انصب اهتمام مؤرخي الكتاب بالفترتين الرومانية والفرنسية، فربطوا التواجد الروماني بالتواجد الفرنسي، وذلك من أجل تأكيد موقع الجزائر الطبيعي بأنها في نطاق أوروبي، "فستيفين غزال" أكد بأن الجزائر تابعة للغرب، غير أنها اقتطعت تعسفا من إفريقيا الشمالية. وتمثل هذا الاقتطاع في الفتح الإسلامي، كذلك مع الأتراك العثمانيين في القرن 16. كما يرى أن الفترة من الفتح

¹⁴ حمد زروال، العلاقات الجزائرية الفرنسية 1791-1830، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 2009، ص 23.

¹⁵ قنصل أمريكا العام في مدينة الجزائر قبيل الاحتلال، أبو القاسم سعد الله، منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 257.

¹⁶ محمد زروال، المرجع السابق، ص 23.

دكتورة: حورية ومان

الإسلامي إلى سنة 1500م يدخل الباحث في ظلام دامس لعدم وجود الوثائق الصحيحة والمعاصرة.¹⁷

ولقد أنكر المؤرخ غوتي وجود كيان مغربي ومنها الجزائر مثلا: "فمن المؤكد أن مثل هذا (- الهيكل الجغرافي أو التضاريس ؟-) ينسب دوما هذا العجز لدى المغرب عن تكوين دولة دائمة".¹⁸ وقد سائر جوليان قرينه -غوتي- في هذه الروئية حيث ويؤكد في نفس السياق ، أن أية دولة مغربية غير قابلة للحياة وقد أكد كل من "غوتي" و"فزال" بأن حالة البلاد الطبيعية لا تساعد على قيام كيان سياسي مستقل وموحد. ولا يمكن قيام حضارة متميزة بها، وذكر الأسباب التي حالت دون ذلك. حيث ذكر أن الامتداد العرضي بمحاذاة البحر المتوسط، وانعدام إقليم مركزي محور للبلاد. كلها عوامل غير مساعدة على قيام حضارة ولهذا جاء المستعمر الأجنبي لإنقاذ البلاد من العجز الطبيعي في الأرض والإنسان، وأكد "فزال، أن الأهالي بقوا متشددين بصفاتهم التي عانت من ظلام لما قبل التاريخ، والعاجزة عن تكوين أمة . وقد ركز الأجانب حضارتهم في المدن عليها تنير سبيل البربر، لكن هؤلاء رفضوا الحضارة".¹⁹ كما عبر غوتي ببشاعة عن حالة بلدان المغرب حيث قال: "إن الدولة المغربية (البلدان المغربية) هي مثل الفقاع: ينبت في ليلة، ويتعفن في صبيحة". أما اندري جوليان فقال: "إن إفريقيا الشمالية الفرنسية، التي تشمل المغرب والجزائر، وتونس، ليست لها حالة مدنية".²⁰ وقد كان كثير من القادة الفرنسيين يتشدقون بهذا الهراء المخجل في عهد الثورة التحريرية أيضا فهذا "منديس فرانس" يقول في مناقشة جرت في الجمعية الوطنية

¹⁷ بلقاسم ميسوم، المرجع السابق، ص ص2-5.

¹⁸ مولود قاسم نايت بالقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830، ج1، المرجع السابق، ص10.

¹⁹ بلقاسم ميسوم، المرجع السابق، ص ص4، 5.

²⁰ مولود قاسم نايت لقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830، ج1، المرجع السابق، ص11.

1830

الفرنسية في أكتوبر سنة 1954 مقارنة بين الجزائر وبلد آخر. "إن بضعة نواب قد قاموا بمقابلة تقريب بين السياسة الفرنسية في الجزائر وتونس. أنني أؤكد بأن ليس ثمة ماهو خطأ وضلال من هذه المقارنة وليس ثمة ما يدانها في الخطورة. فتونس بلد أجنبي نقوم بحمايته أما الجزائر فهي فرنسا" وفي البيان الرسمي الذي أذاعه الرئيس الفرنسي ديغول يوم 16/9/1959 بخصوص القضية الجزائرية نفى أن هناك شعبا جزائريا موحدا منذ التاريخ حتى اليوم وأن هناك حكومة رشيدة حكمت هذا الشعب وقال بالحرف الواحد: "أنني أستشير الشعب الجزائري فردا فردا لأنه منذ خلق العالم لم نسمع بأن الوحدة كانت في الجزائر؟ وأن الشعب الجزائري كان يتمتع بسيادته حيث إن الجزائر احتلها القرطاجيون والرومان والوندال والبيزنطيون والعرب السوريون وعرب قرطبة والأتراك والفرنسيون وإن هؤلاء جميعا احتلوا الجزائر من دون أن يكون هناك حكومة جزائرية".²¹

أما دوبر رئيس الحكومة الفرنسية السابق والجنرالات الذين كانوا يقودون الحرب في الجزائر أمثال (ماسو، وشال، وفور، وسالان). فأنهم كانوا لا يفتأون يؤكدون بين فينة وأخرى هذه العبارة أن الجزائر قطعة من فرنسا لا يمكن فصلها عنها.²²

ومقارنة بالآراء السابقة، نجد أن بعض المؤرخين والمثقفين الفرنسيين أنفسهم اعترفوا بوجود أمة ودولة جزائرية بشخصيتها وكيانها ومن أمثال هؤلاء المؤرخين بول غافريل وقال: "بأن فرنسا كانت تحارب في الجزائر أمة مدفوعة بالدين والوطنية، فهو يقول: "أن الحرب قد أعلنت ضد أمة كاملة مدفوعة

²¹ يحي بوعزيز. ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين من وثائق جبهة التحرير الوطني الجزائريين 1954-1962، ج2، الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009، ص18.

²² محمد صالح صديق، الجزائر بلد التحدي والصمود، موفم للنشر، الجزائر، 2009، ص41.

دكتورة: حورية ومان

بعصبية ثنائية: الوطنية والدين" ويقول ب- ل بولي " إن فرنسا قد استحوذت، عام 1830 على بلاد مرعية ومحمية ، ومسكونة بعدد كبير من المحاربين وسكان لا يستسلمون، إن السلالة الجزائرية بناء على رأيه كانت قد نشأت هناك منذ قرون، متمتعة بحضارة متقدمة ومجتمع منظم مع "عاطفة" واضحة "شخصيتها". " وفي السابع عشر أوت 1862 كتب الدكتور فيتال.²³ إلى صديقه إسماعيل عريان: "بأننا قد ارتكبنا عملا فاحشا، لا أخلاقيا، لا مثل له مدعين الرد على ضربة المروحة لقد اعتصمتم جنسية وقطرا." "كما أن بعض الكتاب الانجليز قد اعترفوا بوجود امة جزائرية، ومن هؤلاء بانستير" الذي دافع عن حق الأمة الجزائرية في حكم نفسها والذي دعا أوروبا لمساعدتها لتحكم نفسها." أما الكاتب الانجليزي الأستاذ باربور، "فقد لام الفرنسيين على تحطيم كل رمز وطني في الجزائر."²⁴

وان المتصفح لهذه الآراء بتناقضاتها يتضح أن هناك اختلاف وتناقض واضح في وجهات النظر بين المؤرخين الفرنسيين والغربيين الذين كتبوا تاريخ الجزائر قبل وبعد الاحتلال. ولتأكيد من هو أصح، يستدعي بنا إلى تحديد مفهوم الأمة والدولة بمقوماتها، وبما أن الاختلاف حول وجود دولة جزائرية كان قائم بين المستعمر الفرنسي الذي يريد نفي أي حقيقة تثبت في أن الجزائر كانت دولة قبل الاحتلال وبين الجزائري الذي يدافع عن كيانيه وهويته يستدعي بنا إلى تحديد مفهوم الأمة من خلال المدرسة الفرنسية لكي تثبت ما إذا كانت المنطلقات التي تنطلق عليها هذه المدرسة تنطبق على وجود الكيان الجزائري قبل 1830.

²³ جراح عسكري فرنسي ولد عام 1810، قضى معظم حياته في الجزائر ينظر: مولاي بلحميسي، المرجع نفسه، ص 71.

²⁴ أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية 1930-1945، ج 2، المرجع السابق، ص ص 67، 68. مولاي بلحميسي، المرجع نفسه، ص ص 71-73.

1830

إن تعريف المدرسة الفرنسية للأمة تنطبق على مكونات وخصائص الأمة الجزائرية فقد كانت لها حدود جغرافية خاصة بها، وحكومتها، ورئيس دولتها وجيشها، وعملتها، وعلمها كما كان لها علاقات دبلوماسية مع فرنسا نفسها ومع إنجلترا، أمريكا، واسبانيا، وهولندا وغيرها من الدول وقد كان لهذه الأمة لغتها الخاصة، ودينها وتاريخها المشترك وعاداتها وتقاليدها المشتركة، غير أنها لم تكن واعية لخصائص وجودها كأمة إلا بعد أن أيقظ الاعتداء الأجنبي ضميرها الوطني فالاعتداء إذن كان عاملا حاسما في الحركة الوطنية الجزائرية لا لكونه قد خلقها ولكن لأنه أيقضها.²⁵

وقد ربط مصطفى ألا شرف نظرية المدرسة في تعريفها للأمة "بالأمة الجزائرية" وقال: "ومهما تصورنا الكيان الجزائري، كأمة متمثلة في دولة، أو كأمة متمثلة في شعب أو كمجرد وطن قومي موحد الكلمة، فإن الجزائر قد توفر فيها عامل أساسي جعلها تصمد طيلة 130 سنة، لا يسعنا إلا أن نشاطره الرأي وأن نقول بأن هذا الأمر ينطبق على الجزائر بالذات، ولكن مؤرخي الاستعمار الفرنسي وحتى اللبيرالين منهم نظرا لاستخفافهم بالشخصية الجزائرية لا يقرون بهذا الأمر للجزائر فالجزائريون آنذاك، مهما قيل في درجة وعيهم وأوضاعهم الاجتماعية، ونمط حياتهم وسواء كانوا يومئذ عربا رحلا أو من الحضر... وسواء كانوا متمسكين بالقديم أو متفتحين على الجديد... وسواء كانوا على اتصال مستمر بالخارج أو في عزلة عن الحياة المعاصرة لهم... وسواء كانوا متمردين على الحكم المحلي أو خاضعين له متفرقين أو متحدين في ظل دولة مستقلة تعمل لجمع الشمل، وتقاوم التدخل والنفوذ والاستغلال الأجنبي... وسواء كانت مساهمتهم قوية أو ضعيفة في النشاط الذي شهده البحر المتوسط. إن الجزائريين رغم كل هذا كانوا

²⁵ أبو القاسم سعد الله الحركة الوطنية 1930-1945، ج2، المرجع السابق، ص ص68، 67.

دكتورة: حورية ومان

يشعرون شعورا واضحا، وبحكم الفطرة، أنهم يؤلفون كيانا قوميا، وانه لابد من اليقظة الدائمة من اجل الدفاع عن وطنهم، وكيف لا يشعرون بذلك وقد ربطتهم أواصر كثيرة، وآلام وآمال مشتركة وأرض ذات حدود واضحة".²⁶

فبقدر ما كان المستعمر يجزم في البداية بأن الأيالة مستقلة عن الباب العالي، كان ينفي أيضا كلما مر به الزمن حتى وجود الأمة الجزائرية. "فالمؤرخ سودرون يزعم بأن الجزائر، عام 1830، لم تكن تشكل دولة، فما بالك بأمة وانه لم يكن لها حدود"، ونفس الزعم يردده ر- أرون، الذي يقول بأن "الجزائر حين وصل الفرنسيون، لم يكن قطرا مستقلا" أما الكاتب بوسكي، الذي كان معروفا بأرائه الاستعمارية فقد قال بأنه كان للجزائريين عام 1830، وطن "لا يشكل تاريخيا واجتماعيا أي شئ" كما كتب الجنرال كاترو، الذي كان ممثل الفرنسي في الجزائر عام 1943، يقول بأنه لم يكن للجزائر "أبدا لا وحدة ولا شخصية سياسية".²⁷

3- معالم وجود الدولة الجزائرية خلال التواجد العثماني 1516-1830

"إن المكانة التي تتبوأها الشعوب في كتب التاريخ لا ترجع إلى القيمة الذاتية لتلك الشعوب، وتعلقها بأرضها، وحبها لوطنها، وشموخها بأنفها، واعتزازها بنفسها، ومدى شجاعتها، وعدالة قوانينها، بقدر ما تتوقف على فصاحتها في الإبانة عن نفسها.

وفي هذا السياق يؤكد مولود قاسم نايت بالقاسم أن الشعوب التي لم تسجل أحداثها، وبقيت خرساء "سيبقى تاريخها أبكم وستبقى الفراغات، التي قد

²⁶ مصطفى الأشراف، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص ص 7، 8.

²⁷ أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية 1930-1945، ج 2، ط 4، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1992، ص ص 73، 74.

معالم وجود الدولة الجزائرية وهبتها العالمية قبل الاستعمار الفرنسي 1518-

1830

يملئها العدو باستعمال الشهادات الناقصة والمزورة.²⁸ وهذا ما حدث لتاريخ بلادنا الذي شوه وحرف من خلال الكتابات الفرنسية خلال فترة الاحتلال.

وصف الكثير من المؤرخين الأوروبيين العهد العثماني بأنه "بادرة جزائرية غيرت مجرى التاريخ الإفريقي" وقبل التطرق إلى تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، يذكر ناصر الدين سعيدوني أن دراسة طبيعة الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، يظهر أن الفترة العثمانية لم تنل الدراسة اللائقة بها. وسبب ذلك أن الكتاب الفرنسيين كانوا يرون أن تاريخ الجزائر في العهد الروماني والفرنسي. هو الجدير بالبحث والدراسة.

غداة استيلاء على غرناطة 1492 كلفت الملكة إيزابيلا ملكة قشتالا وزوجة فرديناند الكاثوليكي رجال الدين وعلى رأسهم ملك الأرغون.²⁹ باستطلاع على المنطقة المغاربية من أجل الغزو الصليبي عليها، وبعد الاتفاق الحاصل بين اسبانيا عام 1493 بفضل المساعي البابوية التي ترمي بمقتضاها إلى تقسيم العالم الغير أوروبي إلى منطقتي نفوذ بينهما وكانت المنطقة المغاربية من نصيب الاسبان.³⁰ وبعد ثلاث سنين فقط من المعاهدة، أي سنة 1497م بالضبط احتلت اسبانيا سبتة ومليلة في المغرب وفي 23 أكتوبر 1505، احتلت المرسى الكبير وفي 18 ماي 1509، احتلت وهران وأرزيو، وعلى امتداد سنة 1510 احتل الأسبان مستغانم، تنس دلس وشرشال والعاصمة وبجاية، طول الساحل حتى تونس

²⁸ مولود قاسم نابت بالقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهبتها العالمية قبل 1830، ج 1، ط 2، الجزائر: شركة دار الأمة، 2007، ص 45.

²⁹ علي أجقو، محاضرات في تاريخ مؤسسات الدولة الجزائرية 1514-1837، مكتبة بيروت، بسكرة، 2010، ص 5.

³⁰ لقد نصت هذه المعاهدة على: الاعتراف بالسيادة الاسبانية: دفع ضريبة سنوية باهظة-إطلاق سراح العبيد المسيحيين، التنازل للأسبان عن إحدى الجزر الصغيرة التي تحمي الميناء وتبني عليها قلعة تعرف تاريخيا باسم الصخرة-يتوجب على سالم بن التومي الذهاب شخصيا لإعلان خضوعه وطاعته لملك اسبانيا برفقة مولاي عبد الله حاكم مدينة تنس. المرجع نفسه، ص 56.

دكتورة: حورية ومان

وختمت اسبانيا امتدادها الصليبي بطرابلس.³¹ وأمام هذا السقوط المتوالي للمدن الساحلية، أعلن بنو عابد الوادي في تلمسان، وبنو حفص في تونس ولائهم لأسبانيا وتبعتهما مكرهة مختلف المدن الأخرى وهذا الخضوع تمثل في إعلان الولاء، دفع جزية التخلي عن القيام بأي نشاط بحري.³² بالإضافة إلى توقيع الجزائر معاهدة الاستسلام.³³ خاصة بعد سقوط بجاية، حيث تقرر في 31 جانفي 1510 إرسال وفد يقوده سالم بن التومي، بصفته رئيس مجلس الأعيان إلى بجاية لإعلان للقائد الاسباني بدرون فاروا وطلب هذا الأخير من الوفد اتفاقية إعلان ولاء وخضوع للسيادة الأسبانية. وأدى هذا الوضع في الجزائر، وفي بلدان المغرب عموما في ذلك الوقت من فتن داخلية فظيعة، وتناحر وتنافر وتبعثر الدول، كل عشيرة تقريبا تنصب نفسها دويلة.³⁴ وقد وصف المؤرخ جون ب. وولف حالة المغرب في القرن الخامس عشر بأنها كانت في صورة انحطاط سياسي وعسكري وتدهور اقتصادي. فالعائلة الحفصية كانت ما تزال حاكمة في الشرق ولكنها كانت ضعيفة وغير قادرة في الغالب على السيطرة على القبائل العربية القوية أو على الحكم المدن التي تزعم السيادة عليها. وفي الغرب ما تزال دول المغرب الأقصى تتمتع ببعض القوى السياسية والعسكرية، أهمها تلك التي تمركزت في فاس، ولكن أحسن ما توصف به حكومة المغرب الأقصى أيضا هو الانحطاط وليس الحيوية السياسية أما المغرب الأوسط، أي المنطقة التي نسميها اليوم الجزائر، فقد كان بدون حكومة، فقد كان مستنقع سياسي من مدن صغيرة وقرى

³¹ مولود قاسم نايت بالقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830، ج 1، ص 61.

³² جون ب. وولف، الجزائر وأوروبا 1500-1830، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، العالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص ص 23-24.

³³ مولود قاسم نايت بالقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830، ج 1، ص 61.

³⁴ عائشة غطاس، المرجع السابق، ص 20.

معالم وجود الدولة الجزائرية وهبتها العالمية قبل الاستعمار الفرنسي 1518-

1830

مستقلة".³⁵ وفي هذا الجودعا الوفد البجائي الإخوة الأربعة بابا عروج وخير الدين، وإلياس وإسحاق، إلى الجزائر لإنقاذها من البطش الصليبي.³⁶ وفي عام 1512 أي بعد مرور سنتين على احتلال بجاية شكل علماء بجاية وفدا لمقابلة ليطلبوا منه إنقاذ المدينة ومساعدة الأمير عبد الرحمن على استرجاعها وعلى اثر ذلك لبي الإخوة النداء وساروا على رأس جيش صغير لمحاصرة المدينة، غير أن هذه المحاولة بأت بالفشل وأرغمت الإخوة بالعودة إلى تونس.³⁷ وكانت نتيجة هذه الحملة هو جرح عروج وفقد إثنائها ذراعه واستشهد محمد اليأس في مصارعة الأسبان.

ثم جاء خير الدين وعروج وإسحاق سنة 1516 إلى العاصمة بطلب من وفد منها من الثعالبية الذين كانوا يحكموا برئاسة سالم بن التومي، وقادة الإخوة الثلاثة مقاومة السكان العاصمة للأسبان المعتصمين في "البنين" إلى أخرجوهم منها وبعثوا ماسموه دولة جزائرية، وامتدت مقاومتهم للأسبان، إلى أن استشهد إسحاق في قلعة بني راشد ثم استشهد عروج 1518، ولم يبق من الإخوة الأربعة إلا خير الدين.³⁸

وجد خير الدين نفسه بعد مقتل أخيه عروج في موقف حرج فقد أدرك في الحال موقفه السياسي ومركزه الحربي، فالأعداء يحيطون من كل جانب ففي الغرب بقايا بني زيان في تلمسان وحلفائهم الأسبان بوهران وفي الشرق بنو حفص والأسبان وكان كل طرف يسعى للإطاحة به.³⁹

³⁵ مولود قاسم نايت بالقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهبتها العالمية قبل 1830، ج 1، ص 62.

³⁶ عائشة غطاس، المرجع السابق، ص 24.

³⁷ علي أجقو، المرجع السابق، ص ص 27-30.

³⁸ عائشة غطاس، المرجع السابق، ص ص 24، 25.

³⁹ مولود قاسم نايت بالقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهبتها العالمية قبل 1830، ج 1، ص ص 81-

دكتورة: حورية ومان

كما القي خير الدين أمام مجلس الأعيان خطابا حول وضعية الجزائر حيث تعرض فيه للكثير من الجوانب "الدفاع، الأمن، نظام الحكم، الهجرة...الخ" ومما جاء في هذا الخطاب "الآن ولم يبقى لي شئ افعله من أجل أساعد مدينتكم قررت أن أغادركم وأترك الى جانبكم فرقة كافية من المحاربين والإبطال يتعلمون من أجل أن تحترم اسم الجزائريين" ثم انتقل للحديث عن النظام الذي تراه مناسبا للبلاد فيقول "أدعوكم إلى إن تختاروا من بينكم من تعتقدون بأنه أهلية للقيادة نصبوه أميركم غير ان أعضاء مجلس أعيان رفضوا رفضا مطلقا. قرار خير الدين ورجوه ملحين أن يبقى بينهم لان بقاءه سيرهب الأعداء ولا يجعلهم يحاولون العودة مرة أخرى، حيث قال مفتي مدينة الجزائر: "حضورك سيدي ضروري جدا لأمن هذه المدينة وسلامتها، المواطنون ليس لهم غيرك كحاكم، سيكون من غير المشرف أن يتركهم عرضة لهجمات الكفار الذين لاينتظرون إلا الوقت الذي تباعد فيه عنهم..."⁴⁰ كما وجه أعيان مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول يناشدونه فيها الحماية والانضمام إلى الدولة العثمانية ومفادها: "يريد عبيدكم إعلامه لمقامكم العالي هو أن خير الدين كان قد عزم قصد جنابكم العالي إلا أن عرفاء البلدة المذكورة رفعت أيديها متضرعة إليه حتى لا يرحل خوفا من الكفار إذ هدفهم هو النيل منا ونحن في غاية الضعف والبلاء..."⁴¹ وبعد موافقة خير الدين لطلب أعيان مدينة الجزائر في البقاء في الجزائر منذ انضمامها للدولة العثمانية

⁴⁰ فقد بلغ مجموع ما أبرمته إنجلترا من اتفاقيات، ومعاهدات، مع الجزائر 27 معاهدة منها اتفاق عام 1759. ووقعت هولندا معها عدة اتفاقات منها اتفاق عام 1682 ووقعت فرنسا 58 اتفاق ومعاهدة بين 1619 و1830، تولي رعاية مصالح فرنسا خلاله بالجزائر 60 قنصلا ونائب قنصل، وتردد على الجزائر 96 محافظا، ومبعوثا. وأول القناصل الفرنسيين بارتول، وأخهم دوفال، وأول المحافظين والمبعوثين دولا فوريسست، وأخهم دوبيري. أنظر: يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1999)، ص 55.

⁴¹ مولود قاسم نايت بالقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبته العالمية قبل 1830، ج 1، ص ص 81-

معالم وجود الدولة الجزائرية وهبتها العالمية قبل الاستعمار الفرنسي 1518-

1830

مرت الدولة الجزائرية بأربع مراحل سياسية هامة مرحلة البايبريات (1519-1587) مرحلة الباشاوات (1587-1659) مرحلة الأغوات (1659-1671) مرحلة الدايات (1671-1830).

العلاقات الدبلوماسية الجزائرية: أما العلاقات بين الجزائر والخلافة العثمانية فتميزت بطابعين اثنين هما:

1- علاقات تعاون ومساعدة بدأت بالمساعدة التي قام بها عروج وخير الدين في الدفاع عن الساحل المغربي والجزائر، أما من جهتنا فكانت البحرية الجزائرية الخلافة العثمانية في معركة ليبانت البحرية يوم 9-أكتوبر 1571 ضد "الحلف المقدس" المتكون من البابوية واسبانيا، والبنديقية وكان للأسطول الجزائري دور بارز في الحرب الروسية العثمانية سنة 1787، لطرد نابليون من مصر وفي معركة نافارين يوم 20-أكتوبر 1827 حيث صارع الأسطول الجزائري وحده بعد أن أبيض الأسطول العثماني ضد أساطيل الحلف الثلاثي "الروسي، الفرنسي، الانجليزي.

2- كانت الجزائر تبرم وت عقد المعاهدات باسمها الرسمي في الغالب في نصوص المعاهدات وفي المراسلات بينها وبين الدول الأخرى في حين كانت بعض الدول العربية آنذاك كالعراق ومصر، ولبيا، وغيرها" لا يستطيع عقد أي معاهدة إلا لرخصة كتابية من الباب العالي، وتمضي المعاهدة باسم الخليفة العثماني.⁴²

كانت الجزائر تعلن الحرب وت عقد السلم، وتجري المفاوضات، وتمضي المعاهدات باسمها.⁴³ وهناك بعض الشهادات الرمزية من مؤرخين أوروبيين عن تلك الجزئية الاسمية فقط من الخلافة العثمانية، وعن تمام استقلالية الجزائر وكمال سيادتها يقول المؤرخ الفرنسي دي غرامون "لقد كان الديوان (أي حكومة

⁴² يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر.... المرجع السابق، ص 53، 52.

⁴³ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978)، ص 204، 203.

دكتورة: حورية ومان

الجزائر) تتخذ القرارات بكل سيادة، ويعقد السلم، ويمضي معاهدات، ويقيم أحلافا بدون أن يتساءل عما إذا كانت تلك القرارات المتحدة موافقة وغير موافقة لسياسة الباب العالي" ويقول المؤرخ الألماني سيمنوف "أن دايات الجزائر لم يكونوا ملوكا وارثين، بل كانوا رؤساء جمهورية عسكرية لم يبق لها قبل آخر عهدا إلا مجرد علاقة اسمية باسطنبول". ويقول المؤرخ الفرنسي فارو: "إن تبعية البلدان المغربية للخلافة العثمانية مجرد تبعية اسمية". ويقول المؤرخ الأمريكي اروين "إن طاعة الباب العالي ليس إلا اسمية في الجزائر".⁴⁴

لقد كانت الجزائر لها علاقات مع العديد من الدول الأوروبية. "حيث كانت الجزائر أقوى دول المغرب الإسلامي، بسبب كبر مساحتها وطول سواحلها، وغناها الاقتصادي، ووفرة تجارتها ورواجها مع الخارج وامتداد دواخلها إلى قلب القارة فيما وراء الصحراء الكبرى، حيث قامت تجارة ناجحة بينهما، وبين تلك الأقطار في العصور الوسطى". وقد أورد هنري فارو، ما تدفعه دول أوروبا للجزائر من الضرائب، وصنف الدول على الشكل التالي:

- الولايات المتحدة الأمريكية، وهولاندا، والبرتغال، ونابلي، والسويد، والنرويج، والدا نمارك، تدفع ضريبة كل عامين.
- الدانمرك والنرويج، والسويد، تدفع ضرائب أخرى في شكل أسلحة، وحبال وصواري، وذخيرة البارود، ورصاص، وحديد، تقدر قيمتها بمبلغ 25 ألف فرنك لكل دولة.
- اسبانيا وفرنسا، وانجلترا، وهانوفر، وسردينيا، والطوسكان، وراقوس، والبندقية، تدفع هدايا دورية للدايات، والباشاوات، وأعضاء الديوان، عند إبرام المعاهدات، أو تعيين قناصل لها بالجزائر.

⁴⁴ مولود قاسم نايت بالقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهبتها العالمية قبل 1830، ج 2، ط 2، (الجزائر: شركة دار الأمة، 2007)، ص ص 12، 13.

معالم وجود الدولة الجزائرية وهيتها العالمية قبل الاستعمار الفرنسي 1518-

1830

أما ليون فالبيير، فقد أورد بشئ من التفصيل، ما تدفعه دول أوروبا للجزائر وذلك على النحو التالي:

- مملكة الصقليتين: تدفع مبلغ 44 ألف بياستر سنويا، منها 24 ألف نقدا، والباقي في شكل بضائع.

- مملكة الطوسكان: تدفع 23 ألف بياستر كلما قدم لها قنصل إلى الجزائر.

- انجلترا تدفع 600 جنيه استرليني، نفس المبلغ تدفعه هولندا، وأمريكا⁴⁵.

وتمثلت جل هذه العلاقات في مساعدات بين الطرفين وعلاقات تجارية أما ما يهمننا في هذا الفصل هو العلاقات الجزائرية الفرنسية وكيف كانت هذه العلاقات وكيف كان وضع الجزائر وفرنسا قبل سنة 1830. لقد بدأت العلاقات الجزائرية الفرنسية طيبة حيث استفادت فرنسا كثيرا من علاقاتها بالدولة الجزائرية، حيث استفادت فرنسا بمساعدات قبل الثورة الفرنسية وبعدها وهي خمس أنواع، نوع قبل الثورة الفرنسية، وأربعة بعدها:

1- المساعدات العسكرية البحرية قبل الثورة وبعدها.

2- المساعدات الدبلوماسية للثورة.

3- المساعدات الاقتصادية للثورة.

4- المساعدات المالية للثورة.

5- المساعدات الإستراتيجية للثورة.

البحرية والعسكرية للدولة الجزائرية:

في مطلع القرن التاسع عشر وصف الدبلوماسي الأمريكي وليم شيلر قوة الجزائر البحرية بقوله: "لقد كان الجزائريون في أوج قوتهم وسمعتهم حتى أن أعظم الدول البحرية كانت تطلب صداقتهم...أنهم اليوم يتباهون بأن عظمتهم

⁴⁵ المرجع نفسه، ص ص 12، 13.

دكتورة: حورية ومان

البحرية لا تماثلها غير بحرية بريطانيا العظمى". والحقيقة أن عظمة الجزائر البحرية بلغت أوجها في النصف الأخير من القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر ويجب أن نؤكد بأن هدف الأسطول الجزائري لم يكن عدوانيا. فقد كانت غايته هي حماية الاستقلال الوطني والدفاع عن الإسلام ضد الصليبية التي هددت كل شمال إفريقيا وقتها بالاحتلال. ذلك خاصة بعد سقوط الاندلس 1492⁴⁶ ونظرا لهذه القوة العظيمة التي امتاز بها الأسطول الجزائري في ذلك الوقت ، استنجد ملك فرنسا فرنسوا الأول بالجزائر ضد الإمبراطور الألماني، ملك اسبانيا وهولاندا، وأمريكا اللاتينية وملك انكلترا، هنري الثامن وقد نزل خير الدين بربروس رئيس دولة الجزائر على رأس جزء كبير من بحرية بمرسيليا يوم 5- يوليو 1543 حيث استقبل استقبالا فاخرا.⁴⁷ ويقول دي غرامون: "ولقد استقبل ملوك الجزائر مرار عديدة مبعوثين خاصين من ملوك فرنسا".

ويقول مؤرخ فرنسي آخر، غاررو: "كانت الجزائر، تمارس بفضل قادتها البحرين، ضغطا على أوروبا كان في صالح فرنسا خاصة أن ذلك حدث في وقت كانت فيه الأمة الفرنسية.⁴⁸ مهددة من شارلكان.⁴⁹ وهنري الثامن بالخطر". كما استنجد الملك ها نري الثاني بصالح رايس والملك ها نري الرابع بحيدر 1591

⁴⁶ ملك اسبانيا، وإمبراطور الإمبراطورية المقدسة كان يحكم إلى جانب اسبانيا، ألمانيا، والأراضي المنخفضة، وأجزاء من إيطاليا، والنمسا، ويعتبر نفسه حامي أوروبا والمسيحية الكاثوليكية والمدافع عنهما. يي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، المرجع السابق، ص 46.

⁴⁷ مولود قاسم نايت بالقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830، ج 1، ص 13-19.

⁴⁸ مولود قاسم نايت بالقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830، ج 2، ص 13-19.

⁴⁹ أخذت التجارة الفرنسية مع الجزائر طابعا قارا، إذ أنشأت فرنسا، انطلاقا من معاهدة 1534، مركزا تجاريا في مدينة القالة، لتصدير الحبوب، وخاصة القمح، ولصيد المرجان، وتصديره لفرنسا وذلك في سنة 1561، المرجع نفسه، ص 10.

معالم وجود الدولة الجزائرية وهبتها العالمية قبل الاستعمار الفرنسي 1518-

1830

رئيس دولة الجزائر.⁵⁰ كما ساعدت الجزائر فرنسا دبلوماسيا وذلك من خلال الاعتراف بالجمهورية الفرنسية الأولى برسالة من الداى حسين يوم 20 مايو 1739 وكان أول اعتراف يأتىها من العالم، وهذا الاعتراف ساهمت الجزائر في فك العزلة السياسية التي اتفقت عليها أوروبا بالتكتلات السبعة فقد أنجدها أيضا في المجال المالي والاقتصادي، لخرق الحصار الذي ضربته عليه أوروبا حولها لخرقها.⁵¹ كما ارتبطت الجزائر وفرنسا منذ بداية العصر الحديث بالمجال التجاري ولقد كان لفرنسا امتيازات تجارية في شرق الجزائر (عنابة، القالة، ورأس بونة، والقل).⁵² وكانت هذه المؤسسات التجارية تدفع الجزية سنوية لكل من الداى من جهة وباي قسنطينة من جهة وذلك مقابل حقها في صيد المرجان واحتكار تصدير الحبوب إلى أوروبا.⁵³ " أما المساعدات المالية الاقتصادية فتمثلت في قرض من الداى حسين سنة 1793 لحكومة الجمهورية الفرنسية لتشتري به قمحا في الجزائر، وهو ما يسمى اليوم بقرض (الاستيراد إلى فرنسا)، (أو التصدير من الجزائر) أو (قرض حكومي).⁵⁴

ويمكن تصنيف المساعدات أو القروض بين الجزائر وفرنسا إلى نوعين:
النوع الأول: هو القرض الحكومي لاستيراد القمح الجزائري، "الذي اتفق كل من الفرنسيين واليهوديين، يوسف بوخريص، الذي غير اسمه إلى بكري،

⁵⁰ محمد زروال، مرجع سابق، ص 12.

⁵¹ مولود قاسم نايت بالقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهبتها العالمية قبل 1830، ج 2، ص ص 13-19.

⁵² المرجع السابق، ص 201.

⁵³ فرحات عباس، حرب الجزائر وثورتها ليل الاستعمار، ترجمة أبو بكر رحال، (الجزائر: منشورات ANEP، 2005)، ص 23.

⁵⁴ محمد بجاوي، الثورة الجزائرية والقانون 1960-1961، ط 2، (الجزائر: دار الرائد للكتاب 2005)، ص ص 35-38.

دكتورة: حورية ومان

ونفطا لي بوشناق، على أن مبلغه هو سبعة ملايين وتسعمائة واثنان وأربعون ألف وتسعمائة واثنان وتسعون فرنك وأربعة وخمسون سنتيم (7.942.992.54)، للقمح وحده، وهو ما اعترفت به فرنسا بعد احوال في مفاوضات طويلة.

النوع الثاني: هو القرض الذي منحه الداى حسين للحكومة الفرنسية، كان من طبيعة أخرى، لأنه عيني، أي نقدا، بالمال مباشرة، حيث قدر مؤرخان فرنسيان: دو غرامون، وكاط مبلغه بخمسة ملايين من الفرنكات الذهبية⁵⁵. إن جل هذه المساعدات التي قدمتها الدولة الجزائرية لفرنسا أنكرت وجود دولة جزائرية في سنة 1830 بالإضافة إلى أنها أنكرت وجود الشعب الجزائري كان له وجود مع أن جنود جيش الاحتلال الفرنسي يعترفون بأنهم حينما احتلوا الجزائر، وجدوا شعبا قويا شجاعا دافع بكل ما يملك عن كل شبر من وطنه كما دافع عن ارثه العربي والإسلامي⁵⁶.

وإن بعث الدولة الجزائرية لا يتفق مع الإرث التاريخي، والتطور الاجتماعي، ومع إرادة الشعب السياسية فحسب، ولكنه يتفق أيضا والقانون الدولي. ذلك أن سيادة شعب الجزائر لا يمكن اعتبارها من الوجهة الحقوقية لاغيه بفعل الغزو والاحتلال الفرنسيين لأرض الجزائر منذ عام 1830 وهذا مكان يتضح من الحجج التالية:

- 1- قبل الغزو الفرنسي كانت الجزائر شخصا من أشخاص القانون الدولي وعضو من أعضاء المجتمع الدولي.
- 2- إن إلحاق الجزائر كان عملا مستحيلا من الناحية الحقوقية.
- 3- إن التسليم دون شرط ودون قيد لم يكن تطبيقه ممكنا.

⁵⁵ مولود قاسم نايت بالقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830، ج 2، ص 46.

⁵⁶ انظر وثيقة الاستسلام بين الداى حسين والقائد العام الفرنسي، عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2007)، ص ص 69، 70.

4- إن لاحتلال كوسيلة من وسائل اكتساب الأرض قد اعتبر دائما غير شرعي في القانون الدولي متى كانت هذه الأرض مأهولة وذات حكومة.

وأن نظرية التقليدية في القانون الدولي تستخلص قيام الدولة منذ أن تتوافر فعليا العناصر الأربعة التالية: الأرض، وجماعة الناس، وقيام سلطة عامة، وأخيرا استقلال هذه المجموعة عن سواها من سائر المجموعات. الأرض: إن الأرض التي قامت عليها مؤسسات الجزائر كانت حدودها متميزة واضحة وضوح حدود أراضي الدول في ذلك الزمن، وكانت أرض الجزائر تتألف من ولايات: وهران في الغرب، ومن التيطري (المدية) الجزائر، وقسنطينة في الشرق. جماعة الناس: أن وجود قمم من الناس في الجزائر متميزين عن سواهم بخصائصهم الاجتماعية.

تنظيم سلطة عامة: بوجود حكومة جزائرية على رأسها الداي بالإضافة لوجود إدارة مركزية، وإدارات فرعية تابعة لها في الولايات والمناطق فكل الولايات الأربع كان يحكمها باي يعينه الداي بالإضافة لوجود جهاز قضائي يرأسه شيخ الإسلام ومن بعده القضاة.

الاستقلال: لقد كتب شارل أندري جوليان في كتابه "تاريخ أفريقيا الشمالية": أنه خلال القرن السابع عشر تحررت إيالات الجزائر وتونس من سلطة الباب العالي. لقد كان للجزائر استقلالها، ولم تكن مرتبطة بتركيا إلا برباط معنوي كالخلافة الإسلامية. حيث كانت أكثر حرية في شؤونها الداخلية من أي بلد من بلدان (الكمونولث) البريطاني حيال بريطانيا العظمى. والدليل على هذا الاستقلال نجده مرة أخرى في أن العلاقات الدبلوماسية للداي "لم تكن باسم الدولة العثمانية، بل باسم الدولة الجزائرية حصرا".⁵⁷ حيث أن المعاهدات المعقودة بين رؤساء

⁵⁷ عبد الحميد زوزو، المرجع السابق، ص 40.

دكتورة: حورية ومان

الدول الأوروبية والأمريكية ودولة الجزائر، أمضاها رؤساء دولة الجزائر باسم الجزائر "الجزائر المجاهدة"، "الجزائر المحروسة"، "الجزائر القاهرة".⁵⁸

5-الدولة الجزائرية عضو في المجتمع الأمم: حيث أن الدولة الجزائرية اعترفت بالعديد من دول العالم وكانت تمارس حيال سائر الدول حقا ساميا هو حق المراقبة في البحر الأبيض المتوسط بالإضافة لعقد المعاهدات وإقامة التحالفات وإعلان الحرب، وإقرار السلم فقد عقدت المعاهدات مع عدة دول منها فرنسا وهولاند وبريطانيا العظمى واسبانيا والبرتغال، والدانمرك، والولايات المتحدة.

ولهذا استحالة إلحاق الجزائر حقوقيا، حيث أن الاتفاقية⁵⁹ المسماة باتفاقية الجنرال د يبرمون في 5-جويلية 1830 لا يعني هذا الاتفاق بأي حق من الحقوق معاهدة صلح أو انتقال للسلادة، بل هو مجرد اتفاقية استسلام تنص على سقوط مدينة الجزائر، وأنه لم تنص إلا على وقف إطلاق القتال في الجزائر في حين استمر القتال في المدن والأحياء الأخرى والواقع أن بعد هذه الهدنة قد نشبت حرب واستمرت أربعين عام.⁶⁰

⁵⁸ يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين من وثائق جبهة التحرير الوطني الجزائريين 1954-1962، ج2، المرجع السابق، صص18، 20.

⁵⁹ يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين من وثائق جبهة التحرير الوطني الجزائريين 1954-1962، ج1، المرجع السابق، صص29، 30.

⁶⁰ محمد الصالح صديق، المرجع السابق، ص7.